تخيلات

الدهر والحياة ...!

بقلم محمد وصفى أحمد

مرحى! مرحى! عهد الطفولة والصبا. يوم ولدتنى الطبيعة. وطرحتنى على سطح الخليقة وسطرت اسمى في صحيفة الحيـاة ، وها أنذا فى مهدى رضيعاً فى رعاية الله جل شأنه. وها هى أمى بجوارى تحوطنى بحنانها، وتشملنى بعطفها، وتضمنى إلى صدرها. وتنشر جناح رحمتها على طفلها، وتطوقنى بيدها، وتشفعنى بحبها ، وتحصننى من كل شر مستطير ، إذا بكيت دللتنى بكلامها العذب ، و إذا مرضت جزعت وخرت ساجدة لله تتضرع اليه أن تمرضها و يشفينى ، وتعرض نفسها وحياتها فداء لابنها، وتوهب كل ما تملك من متاع الحياة نذوراً للأولياء إذا ما بلت من مرضى، وحرمت نفسها نعمة الحياة ، كل ذلك لأجلى ... أجل! تلك هى أمى أخلص المخلصين لدى، وأعز الأصدقاء عندى ، وأغيرهم على مصلحتى. رعاك الله يا أماه، فأنا مدين لك بحياتى إلي يوم الموقف العظيم. ولولاك ما عشت سعيداً فى هذه الحياة أشعر بالهناءة فى عيشى والسرور فى نفسى وأنت بالقرب منى ، أنت التى تفرح لفرحى وتحزن لحزنى وليس لي فى الحيـاة خدن وفى ، وسمير يؤانسنى ، وطبيب يعالجنى، وحكيم يرشدنى إلى طريق الهدى ، غيرك يا أماه.

قمت من مرقدى، وخرجت من مهدى، وأصبحت شابا يافعاً ولجت باب الحياة أكد وأكدح فيها تناضلنى وأناضلها. تارة تبتسم وآونة تعبس وتكشر عن أنيابها، حالتى كحالة غيرى من أبناء الحياة. فكلنا نرى أياما سعيدة مفرحة نلهو بها كيفما شاء لنا الهوى. وترحل كأنها سويعات معدودة، وتتلاشى كقطرة ماء تبخرت من أثير الهواء ، وأياما تعسة يشقى بها الانسان تمر كأنها السنين الطوال.

ما أحلى حياة الشباب. حياة رغدة ، مرحة جميلة ، أود لها البقاء، وأن لا تعتريني الكهولة فأقعد عن الكد والكفاح. ولكن تمر السنين وأنا لا أدرى بها ولا أشعر برحيلها، وكأننى فى رؤيا تعرض أمام ناظرى مشاهد الحياة ، براحتها ومتاعبها وسعادتها وشقائها. واستيقظت من سباتى فلقيت نفسي بين وهاد الشقاء وآكام الحزن وروابى التعب خلفته لى أيام الشباب ولم أتحصن لها أو أذود نفسى منها، ولكن قد مضى وقت الشباب فهل أعود اليه؟ هيهات! هيهات!

فقد انتقلت من عالم المرح إلى عالم الشيخوخة الحكيمة، و بلغت من العمر عتياً وقضيت حياتى ما بين جد وهزل، و بين كد وكفاح

ابتعدت عن هذه الحياة الصاخبة — حياة الطيش والمجون — واعتكفت فى صومعة على سفح جبل أسبح الله وحيداً ، وقطنت تلك الدار حيث لا نفاق فيها، ولا إثم ولا عدوان، وحيث السماء صافية لا تشوبها شائبة المكر والخداع، والشمس ضاحية لا تحجبها سحب النفاق، وأسمع أهازيج الطيور وأناشيد البلابل على الأفنان والغصون، تطير من فرع إلى آخر ، وتنتقل من شجرة إلى أخرى، تصدح بصوتها الشجى فأسمعها تسبح بحمد الله على حياتها الحرة، لا تعوقها جسور الاستعباد، ولا سدود الظلم والاستبداد، تمرح فى البطاح الواسعة، تأكل من نبات الطبيعة ، ولقد طابت نفسى إلى هذه المعيشة بعيداً عن كل رذائل الحياة، مرتاح الضمير، فلا أحس بوخزه، ولا تساورنى أفكار الشباب الطائشة، فلقد عركت الحياة وعرفت خدعها ، وأنا فى أحلامى ساهر أفكر فيما عساى أفعله لغيرى ، أراعى القمر وهو يتيه دلالا وخيلاء، معجباً بجماله فى صفحة السماء المنيرة بشعاعه ، وكأنه يشعر بموقع جماله فى قلوب البشر ، والنجوم حوله ترعاه. والنسيم يهب حاملا شذى عطر الرياحين والأزهار التى انبتتها التربة، أستنشق رائحتها الذكية ، وأتذوق طعم رحيقها الحلو ، والطبيعة ساكنة، والليل يوحى إلى النفس بعظم جلاله ورهبته فى النفوس التى تتوق إلى فك طلسمه المبهم، ولم أسمع صوت إنسان أو صديح بلبل أو تغريد طير، اللهم إلا حفيف الأشجار وخرير المياه .

وفيما أنا فى عزلتى ، والنفس مرتاحة إلى هذا السكون المخيم على سطح الخليقة، طرق مسامعى وقع أقدام ، فأنصت اليه، ثم خفت الوقع، وعاود الكرة مرة ثانية، فاستشطت غضباً وقمت أجوب وأنقب فيما حولى عساى أهتدى إلى سر هذا الوقع الذى يزداد شيئاً فشيئاً، وعلى حين غرة لمحت عيناى شبحاً مخيف الشكل، تهدلت لحيته البيضاء الناصعة متدثراً بكساء أبيض، ورغم شيخوخته يسير سير الشباب القوى، و يبعث فى النفس الروعة والاجلال، متأبطاً مجلداً ضخما . فارتعدت فرائصى وفزعت نفسى، وعاودت النفس بأنه أحد المردة التى تسكن هذه البقاع، وأسرع الشبح الخطى نحوى ، وما قرب منى قيد خطوة حتى هممت بالفرار. ولكنه رفع يده مشيراً الى بالوقوف صائحاً : قف مكانك !

فجمدت فى موضعى . ووقعت فى شرك الدهشة والعجب ، وخيل الى أن الله قد كسا العظام لحما ، فنهضت الاموات تنبه الاحياء . وأنا الشيخ المسن قوضت السنون ظهرى ،

ونكبني الدهر بفواجعه وآثامه ، فلم تقو النفس على ما شاهدت، فأغمى على في الحال، وفقدت صوابي ، ولم أع مادار حولي. ولكن كم كانت دهشتي عظيمة حين صحوت من غشيتي ، ووجدت نفسي في مكان فسيح من الغبراء ، يصفر فيه الهواء ، ويكاد يجتذب جذور الاشجار ، وأخذت الشمس تنشر أهدابها على البطحاء ، والقمر يرجع القهقرى ونوره يتضاءل شيئاً فشيئاً ، وما زال أمامي ذلك الشيخ الذي لا أعرف كنه مصدره ، وأنا صامت لا أقوى على الكلام ، والنفس يتردد ، والقلب ينقبض ، والجسد يلهث من التعب ، وقطع هذا الصمت صوت الشيخ قائلا :

أتعلم من أنا أيها الغارق في خضم الحياة !؟ فأجبته سلبا. وصمت هنيهة ثم قال :

« أنا الزمن ، وبين يدي هذا السفر العظيم أدون فيه تاريخ كل شخص على سطح الحياة. أحكم له أو عليه ، فأنت أيها الشيخ قد بلغت شوطاً كبيراً من الحياة، فبالأمس البعيد كنت طفلا مدللا رضيعاً، ترعاك أمك ، وتطورت فأصبحت غلاما طائشاً لم تدرس الحياة، ثم غدوت شابا مفتونا، ومرحت ولهوت في أيام الشباب. ولم تعبأ بالدهر حاسبا أنه سيبقى على حاله، وصرفت كل ما تملك من مال في ملذاتك، ولم تعمل حسابا لشيخوختك القادمة، والزمن ليس على وتيرة واحدة ، فهو يرفع هذا الفقير ويخفض ذاك الغني، ويشيد صروح المجد لناس كانوا لا يذكرون في الحياة، ويهدم عزة أشخاص كانوا أشهر من نار على علم، ويشقى سعيدا ، ويسعد شقيا. وهكذا دواليك. ولقد دبت اليك الشيخوخة واعتراك مرض الكهولة ، فهلا اقتصدت مالا وصحة وقوة من أيام الشباب لتنفعك الآن ؟ ولقد تركت مفاسد الحياة، وركنت إلى الصلاح والتقوى، واعتكفت على التسبيح بحمد الله ، شأنك شأن كل شخص أقعدته الشيخوخة عن النضال في طود الحياة، وكذلك عندما شعرت بدنو أجلك قمت إلى الصلاة ، فكفاك ما تنعمت به من العمر وهيا إلى هذا الطريق وسر على مدى بصرك فهناك تجد راحتك » .

فأطرقت برأسي نحو الارض، وأذعنت لأمر الزمن، ورضخت لحكمه. وسرت متكئا على عصاي، وقطعت شطرا كبيرا من الطريق (طريق الحياة) حتى أشرف على رابية لست أدري لها نهاية ، لا هي بالارض، ولا هي بالسماء . ولم أجد لقرارها حدا يقف عنده البصر ، وأردت الرجوع من حيث أتيت، ولكني لم أستطع ، إذ كان الشيخ يتبعني متابعة الظل لصاحبه ويقهقه بضحكة صفراء عريضة « ها ! ها ! أتريد الرجوع من حيث أتيت ! ؟ أترجع إلى أيام صباك ؟ لا ! لا ! كفى ! كفى. هنا طريق الابدية، فألق بنفسك في تلك الهوة السحيقة ، حيث تكون في عالم الخلود، وغدا ستقف بين يدي الله لتحاسب على كل ذرة فعلتها في حياتك، من حسنة وسيئة » .

محمد وصفي احمد